

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ فِي شَيْءٍ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾

ما دام الكلام السابق كان حول البيت الحرام ، فمن المناسب أن يتكلم عن تاريخه وبنائه . فقال سبحانه : ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ فِي شَيْءٍ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج] . معنى بَوَّأَ : أى : جعله مَبَاءً بمعنى : يذهب لعمله ومصلحته . ثم بيَّنه إليه ويعود . كالبيت للإنسان يرجع إليه . ومنه قوله تعالى : ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ..﴾ (٦١) [البقرة]

وإذ : ظرف زمان لحدث يأتى بعده الإخبار بهذا الحدث . والمعنى خطاب لرسول الله ﷺ : اذكر يا محمد الوقت الذى قيل فيه لإبراهيم كذا وكذا . وهكذا فى كل آيات القرآن تأتى (إذ) فى خطاب لرسول الله ﷺ بحدث وقع فى ذلك الظرف .

لكن ، ما علاقة المباءة أو المكان المقبولا بمسألة البيت ؟ قالوا : لأن المكان المقبولا بقعة من الأرض يختارها الإنسان : ليرجع إليها من متاعب حياته . ولا يختار الإنسان مثل هذا المكان إلا توفرت فيه كل مقومات الحياة .

لذلك يقول تعالى فى قصة يوسف عليه السلام : ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا يُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ شَاءَ ..﴾ (٥٦) [يوسف]

وقال فى شأن بنى إسرائيل : ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ مَوْءً صِدْقٍ ..﴾ (٩٢) [يونس] فمعنى : ﴿بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ ..﴾ (٦١) [الحج]

أى : جعلناه مباداة له ، يرجع إليه من حركة حياته بعد أن أظمناه ،
وبلكناه على مكانه^(١) .

وقلنا : إن المكان غير المكين ، المكان هو البقعة التى يقع فيها
ويحل بها المكين ، فأرض هذا المسجد مكان ، والبناء القائم على هذه
الأرض يُسمى « مكين فى هذا المكان » . وعلى هذا فقد دلَّ الله
إبراهيم عليه السلام على المكان الذى سيأمره بإقامة البيت عليه .

وقد كان للعلماء كلام طويل حول هذه المسألة : فبعضهم يذهب
إلى أن إبراهيم عليه السلام هو أول من بنى البيت . ونقول لأصحاب
هذا رأى : الحق - تبارك وتعالى - بولَّ لإبراهيم مكان البيت ، يعنى :
بيئته له : كان البيت كان موجوداً ، بدليل أن الله تعالى يقول فى
القصة على لسان إبراهيم : ﴿ إِنِّى أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ
عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ .. ﴾ (٣٧) [إبراهيم]

وفى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ
وَإِسْمَاعِيلُ .. ﴾ (١٢٧) [البقرة]

ومعلوم أن إسماعيل قد شارك أباه وساعده فى البناء لما شَبَّ .
وأصبح لديه القدرة على معاونة أبيه ، أما مسألة السكن فكانت
واسماعيل ما يزال رضيعاً ، وقوله تعالى : ﴿ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ .. ﴾
(٢٧) [إبراهيم] يدل على أن العنصرية موجودة قبل أن يبلغ إسماعيل أن
يساعد أباه فى بناية البيت ، إذن : هذا دليل على أن البيت كان
موجوداً قبل إبراهيم .

(١) أى : أريدناه أصله لبيئته ، وكان قد درس بالطوفان وغيره . فلما جاءت مدة إبراهيم عليه
السلام أمره الله ببيئته ، فجاء إلى موضعه وجعل يطلب أثراً ، فبحث الله ريثما فكشفت عن
أساس آدم عليه السلام . فرتب قواعد طيه . [تفسير القرطبي ٤٥٩٧/٦] .

ॐ नमो भगवते वासुदेवाय

[illegible]

وقد أوضح الحق - سبحانه وتعالى - هذه المسألة في قوله تعالى : ﴿إِنْ أُولَٰئِكَ رَجِعُوا لِلنَّاسِ نُزُلًا مِّمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: ٩٦]

وحتى نتفق على فهم الآية نسأل : مَنْ هُم الناس ؟ الناس هم آدم وذريته إلى أن تقوم الساعة ، إذن : فأدم من الناس ، فلماذا لا يشملهم عموم الآية ، فالجواب وُضِع للناس ، وأدم من الناس ، فلا بد أن يكون وُضِع لأدم أيضا .

إذن : يمكنك القول بأن البيت وُضِعَ حتى قبل آدم ؛ لذلك نُصِبَ
بالرأى الذى يقول : إن الملائكة هى التى وضعت البيت أولاً ، ثم
طمس الطوفان معالم البيت ، فقل الله إبراهيم يوحى منه على مكان
البيت ، وأمره أن يرفعه من جديد فى هذا الوادى .

وَيَقَالُ : إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرْسَلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ سَحَابَةً مِّلَأَتْ عَلَى الْمَكَانِ وَنَطَقَتْ : يَا إِبْرَاهِيمُ خُذْ عَلَى قَبْرِي ، أَيُّ : الْبَقَاءُ ^(١)

ولو تديرته معنى : ﴿وَأَذِ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ ۖ﴾ (١٢٧)
[البقرة] الرِّقْعَ يعنى : الارتقاع ، وهو البعد الثالث ، فكان للقواعد كان
لها ملول وعرض موجود فعلا ، وعلى إبراهيم أن يرفعها .

لكن لماذا بولاً الله لإبراهيم مكان البيت ؟

(١٧) ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ كَانَ الْمَسَافَةَ مِنْ بَدَايَتِهَا مَسَافَةَ عِبَادَةِ وَإِقَامَةِ لِلصَّلَاةِ ،

(١) أخرجه الألباني عن علي بن النبي عليه السلام في قوله : ﴿وَأَن يَرْفَعَ إِبْرَاهِيمَ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ

(١٧٧) ﴿البقرة﴾ قال : « جهات مسماة على توبيخ البيت ، لها رأس تكلم : ارتفاع البيت على ترابي ، فرقاه على ترابيها » [أورده السيوطي في الدر المنثور ٣٠٧/١] .

الصلاة للإله الحق والرب المصدق : لذلك أمره أولاً : ﴿ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا وَظَهَرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ [الحج] والمراد : مظهر هذا المكان من كل ما يشعر بالشرك ، فهذه هي البداية الصحيحة لإقامة بيت الله .

وهل كان يُعقل أن يدخل إبراهيم - عليه السلام - في الشرك ؟ بالطبع لا ، وما أبعد إبراهيم عن الشرك ، لكن حين يُرسل الله رسولا ، فإنه أول من يتلقى عن الله الأوامر ليبلغ أمته ، فهو أول من يتلقى ، وأول من يُنفذ ليكون قدوة لقومه فيصدقوه ويتقوا به ؛ لأنه أمرهم بأمر هو ليس بنجوة عنه .

ألا ترى قوله تعالى لنبيه محمد ﷺ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ .. ﴾ [الاحزاب] وهل خرج محمد ﷺ عن تقوى الله ؟ إنما الأمر للامة في شخص رسولها ، حتى يسهل علينا الأمر حين يأمرنا ربنا بتقواه ، ولا نرى غضاظة في هذا الأمر الذي سبقنا إليه رسول الله ؛ لأنك تلحظ أن البعض يأنف أن يقول له : يا فلان اتق الله ، وربما اعتبرها إهانة واتهاما ، وظن أنها لا تقال إلا لمن بدر منه ما يخالف التقوى .

وهذا فهم خاطيء للأمر بالتقوى ، فحين أقول لك : اتق الله . لا يعني أنني أنفى عنك التقوى ، إنما أذكرك أن تبدأ حركة حياتك بتقوى الله .

إذن : قوله تعالى لإبراهيم عليه السلام : ﴿ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا .. ﴾ [الحج] لا تعني تصور حدوث الشرك من إبراهيم ، وقال ﴿ شَيْئًا .. ﴾ [الحج] ليشمل النهي كّل ألوان الشرك ، أي : كانت صورته : شجر ، أو حجر ، أو وثن ، أو نجوم ، أو كواكب .

سورة الحج

٩٧٧٩

ويؤكد هذا المعنى بقوله : ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ ﴾ (٢٦) [الحج] والتطهير
يعنى : الطهارة المعنوية بإزالة أسباب الشرك ، وإخلاص العبادة لله
وحده لا شريك له ، وطهارة جسدية مما أصابه بمرور الزمن وحدث
الطوفان ، فقد يكون به شيء من القاذورات مثلاً .

ويعنى ﴿ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢٦) [الحج] الذين يطوفون بالبيت :
﴿ وَالْقَائِمِينَ ﴾ (٢٦) [الحج] المقيمين المعتكفين فيه للعبادة ﴿ وَالرُّكَّعِ
السُّجُودِ ﴾ (٢٦) [الحج] الذين يذهبون إليه فى أوقات الصلوات لاداء
الصلاة ، عيّر عن الصلاة بالركوع والسجود : لأنهما أظهر أعمال
الصلاة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى
كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَكَ مِنْ كُلِّ فِجٍّ عَمِيقٍ ﴾ (٢٧)

أمر الله نبيه إبراهيم بعد أن رفع القواعد من البيت أن يؤذن فى
الناس بالحج ، لماذا ؟ لأن البيت بيت الله ، والخلق جميعاً خلق الله ،
فلماذا تقتصر رؤية البيت على مَنْ قُبِرَ له أن يمر به ، أو يعيش إلى
جواره ؟

فأراد الحق - سبحانه وتعالى - أن يُشيع هذه الميزة بين خلقه
جميعاً ، فيذهبوا لرؤية بيت ربهم ، وإن كانت المساجد كلها بيوت

(١) الضامر : لطيف الجسم قليل اللحم . وعن عادة العرب أن يُضَمِّروا الخيل لتكون أقوى
وأشد وأسرع . وقوله تعالى : ﴿ وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ (٢٧) [الحج] . أى : حصان ضامر

متعود على السفر البعيد بنشاط وقوة . [القاموس القويم ٢٩٥/١] .

الله ، إلا أن هذا البيت بالذات هو بيت الله باختيار الله ؛ لذلك جعله قبلة
لعباده التي اختارها الخلق .

إن من علامات الولاء بين الناس أن نزور قصور العظماء وعلمية
القوم ، ثم يُسجل الزائر اسمه في سجل الزيارات ، ويرى في ذلك
شرفاً ورفعة ، فما بالك ببيت الله ، كيف تقتضيه زيارته ورؤيته على
أهله والجوارين له أو مَنْ قَدَّرَ لهم المرور به ؟

ومعنى ﴿أَذِّنْ .. (٢٧)﴾ [الحج] الأذان : العلم ، وأول وسائل العلم
السمع بالأذن ، ومن الأذن أخذ الأذان ، أى : الإعلام ، ومن هذه
المادة قوله تعالى : ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ .. (٧)﴾ [إبراهيم] أى : أعلم ؛
لأن الأذن وسيلة السمع الأولى ، والخطاب المبدئى الذى نتعلم به ؛
لذلك قيل أن تتكلم لا بد أن تسمع .

وحينما أمر الله إبراهيم بالأذان لم يكن حول البيت غير إبراهيم
وولده وزوجته ، فلمن يؤذن ؟ ومن سيستمع فى صحراء واسعة
شاسعة وواد غير مسكون ؟ فناداه ربه : « يا إبراهيم عليك الأذان
وعلىنا البلاغ »^(١) .

مهمتك أن ترفع صوتك بالأذان ، وعلىنا إيصال هذا النداء إلى كل
الناس ، فى كل الزمان ، وفى كل المكان ، سيسمعه البشر جميعاً ،

(١) عن ابن عباس قال : لما فرغ إبراهيم من بناء البيت قال : رب ، قد فرغت ، فقال : ﴿وَأَذِّنْ
فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ .. (٢٧)﴾ [الحج] . قال : رب ، وما يبلغ صوتى ؟ قال : أذن وعلى البلاغ .
قال : رب ، كيف أقول ؟ قال : يا أيها الناس ، كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق ، فسمعه
من بين السماء والأرض ، ألا ترى أنهم يجيئون من أقصى الأرض يلبون ؟ وأورد
السيوطى فى الدر المنثور (٣٢/٦) وعزاه لابن أبى شعبة فى المصنف وابن جرير وابن
أبى حاتم والحاكم وصححه والبيهقى فى سننه .

سورة الحج

١٧٨١

وهم في عالم الدُّر وفي أصلاب آبائهم^(١) بقدره الله تعالى الذي قال لنبيه محمد ﷺ : ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال]

يعنى : أَلْ مَا عَلَيْكَ ، وَاَتَرَكَ مَا فَوْقَ قُدْرَتِكَ لِقُدْرَةِ رَبِّكَ . فَأَذْنُ إِبْرَاهِيمَ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ ، وَوَصَلَ الْفَدَاءَ إِلَى الْبَشَرِ جَمِيعاً ، وَإِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ ، فَمَنْ أَجَابَ وَلَبَّى : لَبِيكَ اللَّهُمَّ لَبِيكَ كُتِبَتْ لَهُ حَاجَةٌ ، حَتَّى إِنْ مِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ قَالَ^(٢) : مَنْ لَبَّى مَرَّةً كُتِبَتْ لَهُ حَاجَةٌ ، وَمَنْ لَبَّى مَرَّتَيْنِ كُتِبَتْ لَهُ حَجَّتَيْنِ وَهَكَذَا ، لِأَن مَعْنَى لَبِيكَ : إِجَابَةٌ لَكَ بَعْدَ إِجَابَةٍ .

فَإِنْ قُلْتَ : إِنْ مَطْلَبُ اللَّهِ وَأَوَامِرُهُ كَثِيرَةٌ ، فَلَمَّاذَا أَخَذَ الْحَجَّ بِالذَّاتِ هَذِهِ الْمَكَانَةِ ؟ نَقُولُ : أَرْكَانُ الْإِسْلَامِ تَبْدَأُ بِالشَّهَادَتَيْنِ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ، ثُمَّ الصَّلَاةُ ، ثُمَّ الزَّكَاةُ ، ثُمَّ الصَّوْمُ ، ثُمَّ الْحَجُّ ، لَوْ نَظَرْتَ إِلَى هَذِهِ الْأَرْكَانِ لَوَجَدْتَ أَنَّ الْحَجَّ هُوَ الرُّكْنُ الْوَحِيدُ الَّذِي يَجْتَهِدُ الْمُسْلِمُ فِي آدَائِهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُسْتَطِيعاً لَهُ فَتَرَاهُ يُوَفِّرُ وَيَقْتَصِدُ حَتَّى مِنْ قُوَّتِهِ ، وَرَبِمَا حَرَّمَ نَفْسَهُ لِيُؤَدِّيَ فَرِيضَةَ الْحَجِّ ، وَلَا يَحْدُثَ هَذَا وَلَا يَتَكَلَّفَهُ الْإِنْسَانُ إِلَّا فِي هَذِهِ الْفَرِيضَةِ ، لَمَّاذَا ؟

قَالُوا : لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَكَمَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ فَقَالَ : أَذْنٌ - يَا تُثُوكَ ، هَكَذَا رَغْماً عَنْهُمْ ، وَدُونَ اخْتِيَارِهِمْ . أَلَا تَرَى النَّاسَ يَنْجَذِبُونَ لِأَدَاءِ هَذِهِ الْفَرِيضَةِ ، وَكَأَنَّ قُوَّةً خَارِجَةً عَنْهُمْ تَجْذِبُهُمْ .

(١) عَنْ أَبِي عِيَّاسٍ فِي قَوْلِهِ ﴿وَأَذْنٌ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ [١٧] [الحج] . قَالَ : قَالِمُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى الْمَجْرِ قَنَادَى : يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، كَلِّبْ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ ، فَاسْمَعِ مَنْ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ وَأَرْحَامِ النِّسَاءِ ، فَاجَابَ مَنْ آمَنَ مِنْ مَعْنٍ سَبَقَ فِي عِلْمِ اللَّهِ أَنْ يَحْجَّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ : لَبِيكَ اللَّهُمَّ لَبِيكَ . أَوْرَدَهُ السَّيوطِيُّ فِي الدَّرِّ الْمَنْثُورِ (٢٢ / ٦) وَهَذَا لِأَبْنِ جَرِيرٍ الطَّبْرِيِّ . (٢) أَخْرَجَهُ الدَّيْلَمِيُّ فِي « الْفَرِيدِ » بِمَأْثُورِ الْقَطَّابِ ، (رَقْم ٥٢٠٣) عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَلِّبٍ ، قَالَ السَّيوطِيُّ فِي الدَّرِّ الْمَنْثُورِ (٢٢ / ٦) : « أَخْرَجَهُ الدَّيْلَمِيُّ بِمَعْنَى وَلَهُ عَنْ عَلِيٍّ رَفَعَهُ » ، وَقَالَ الْفَتَّيُّ فِي تَذَكُّرَةِ الْمُرْضِعَاتِ (ص ٧٣) : « الْحَدِيثُ مِنْ نَسْنَةِ مُحَمَّدِ بْنِ الْأَشْعَثِ الَّتِي عَامَةً أَحَادِيثُهَا مَنَاقِيرٌ » .

وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ .. ﴾ [ابراهيم] ومعنى تهوى : تأنى دون اختيار من الهوى أى : السقوط ، وهو أمر لا يملكه الإنسان ، كالذى يسقط من مكان عال ، فليس له اختيار فى ألا يسقط .

وهكذا تحنُّ القلوب إلى بيت الله ، وتتحرَّق شوقاً إليه ، وكان شيئاً يجذبها لأداء هذه الفريضة : لأن الله تعالى أمر بهذه الفريضة ، وحكم فيها بقوله ﴿ يَأْتُرْكُ .. ﴾ [الحج] أما فى الأمور الأخرى فقد أمر بها وتركها لاختيار المكلف ، يطيع أو يعصى ، إذن : هذه المسألة قضية صادقة بنص القرآن .

وبعض أهل الفهم يقولون : إن الأمر فى : ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ ﴾ [الحج] ليس لإبراهيم ، وإنما لمحمد ﷺ - الذى نزل عليه القرآن ، وخاطبه بهذه الآية ، فالمعنى ﴿ وَأَذِّنْ بَوَائِنَ إِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ .. ﴾ [الحج] يعنى : اذكر يا مَنْ أُنزل عليه كتابى إذ بوائنا لإبراهيم مكان البيت ، اذكر هذه القضية ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ .. ﴾ [الحج] فكان الأمر هنا لمحمد ﷺ^(١) .

لذلك لا نشاهد هذا النسك فى الأمم الأخرى كاليهود والنصارى ، فهم لا يحجرون ولا يذهبون إلى بيت الله أبداً ، وقد ثبت أن موسى - عليه السلام - حج بيت الله^(٢) ، لكن لم يثبت أن عيسى عليه السلام

(١) قال القرطبي فى تفسيره (٦ / ٤٥٦٩) : « قيل : إن الخطاب لإبراهيم عليه السلام ثم عد قوله ﴿ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ [الحج] ثم خاطب الله من وجه محمد ﷺ فقال : ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ .. ﴾ [الحج] أى : أعلمهم أن عليهم الحج » .

(٢) عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ مر برأى الأزرق فقال : أى واد هذا ؟ فقالوا : هذا وادى الأزرق . قال : كائى أنظر إلى موسى عليه السلام عابداً من الثنية وله جزاء إلى الله بالتلبية ، ثم أتى على ثنية هرشى ، فقال : أى ثنية هذه ؟ قالوا : ثنية هرشى : قال : كائى أنظر إلى موسى بن متى عليه السلام على ثلاثة حمراء جعدة عليه جبة من صوف ، خطم نافسه خلية ، وهو يكبى ، أخرجه مسلم فى صحيحه (١٦٦) ، وأحمد فى مسنده (١ / ٢١٥) .

حَجَّ ، بدليل أن رسول الله ﷺ قال : « يوشك أن ينزل ابن مريم ،
ويأتى حاجاً ، ويؤور قبري ، ويدفن هناك »^(١) .

فقال رسول الله : « ويأتى حاجاً » لأنه لم يمض ، وسوف يدرك
عهد التكليف من رسول الله حين ينزل من السماء ، وسيصلي خلف
إمام من أمة محمد صلى الله عليه وسلم على جميع أنبياء الله ورسله .

ومن المسائل التي نحتج بها عليهم قرانهم : إن الذبيح إسحق ، فلو أن
الذبيح إسحق كما يدعون لكانت مناسك الذبيح والقداء ورعى الجمار عندكم
في الشام ، أما هذه المناسك فهي هنا في مكة ، حيث كان إسماعيل .

ثم تذكروا جيداً ما قاله كتابكم المقدس^(٢) في الأصحاح ٢٢ ، ٢٤

(١) أورد القرطبي في التذكرة (ص ٧٧٢) طبعة مكتبة دار التوراة من حديث كثير بن عبد الله عن أبيه
عن جده قال : « فرؤنا مع النبي ﷺ الحديث ، وفيه : « لا تقوم الساعة حتى ينزل عيسى بن مريم عند
الله برسوله حاجاً أو معتمراً أو ليجتمعن الله ذلك له » . وقال محمد بن كعب القرظي : أن رجلاً قال :
إني أشهد أنه لمكثرب في التوراة والإنجيل أنه يمر بالروحاء حاجاً أو معتمراً أو يصعد الله له ذلك ،
فيجعل الله حواريه أصحاب الكهف والرقيم ، فيسرون حاجاً فإنهم لم يخرجوا ولم يموتوا » .
أما دفن المسيح عليه السلام فقد ذكر القرطبي في التذكرة (ص ٧٦٦) عن عبد الله بن عمرو
عن رسول الله ﷺ : « ويمكث خمسا وأربعين سنة ويدفن معي في قبري فأقوم أنا وعيسى من
قبر واحد بين أبي بكر وعمر » ذكره الميائضي أبو حفص .

ومن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « يمكث عيسى في الأرض بعدما ينزل أربعين سنة ، ثم
يموت ويصلي عليه المسلمون ويدفنون » ذكره أبو داود الطيالسي في مسنده (حديث ٢٥٤١) .
(٢) تحقيق هذه المسألة أن إبراهيم عليه السلام كان عمره ٨٦ سنة عندما ولد له إسماعيل ، وذلك
بنص الكتاب المقدس : « كان أبرام ابن ست وثمانين سنة لهما ولدت هاجر إسماعيل لأبرام »
[التكوين ١٦ : ١٦] . أما عمره عندما ولد له إسحاق ، فكان عمره ١٠٠ سنة ، بنص الكتاب :
« وكان إبراهيم ابن مئة سنة حين ولد له إسحاق ابنه » [تكوين ٢٦ : ٥] أي أن عمر إسماعيل
كان ١٤ سنة حينما ولد أخوه إسحاق ، فكيف يكون وحيداً هو إسحاق ؟

وهاجر زوجة لإبراهيم بنص التوراة « فخلعت سارة امرأة أبرام هاجر المصرية جاريتها
من بعد عشر سنين لإقامة أبرام في أرض كنعان وأعطتها لأبرام رجلاً زوجة له . فدخل على
هاجر فحملت » [تكوين ١٦ : ١-٤] .

فكيف يقولون بعد هذا : « وحده بعد هذه الأمور أن الله امتحن إبراهيم فقال له يا إبراهيم ،
فقال هاأنذا . فقال : خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحاق واذهب إلى أرض المريا واصعد هناك
محرقة على أحد الجبال الذي أقول لك » [تكوين ٢٢ : ٢] وانظر [تكوين ٢٢ : ٩ - ١٦] .

من أن الحق - سبحانه وتعالى - أوحى إلى إبراهيم أن يصعد على جبل فاران ، ويأخذ ولده الوحيد ويذبحه ، فالوحيد إسماعيل لا إسحق ؛ لأن الله فدى إسماعيل ، ثم بشر إبراهيم بإسحق .

ومن حكمة الله - عز وجل - أن جعل في كذب الكاذب منقذا للحق ، وثغرات فصل منها إلى الحقيقة ؛ لذلك يقول رجال القضاء : ليست هناك جريمة كاملة أبداً ، لا بد أن يترك المجرم قرينة تدل عليه مهما احتاط لجريمته ، كأن يسقط منه شيء ولو أضرار من ملابسه ، أو ورقة صغيرة بها رقم تليفون .. إلخ ، لذلك نقول : الجريمة لا تفيد ؛ لأن المجرم سيقع لا محالة في يد من يقتص منه .

ولرجال القضاء ووكلاء النيابة مقدرة كبيرة على استخلاص الحقيقة من أفواه المجرمين أنفسهم ، فيظل القاضي يحاوره إلى أن يجد في كلامه ثغرة أو تضارباً يصل منه إلى الحقيقة .

ذلك لأن الصدق وجهاً واحداً لا يمكن أن يتلجلج صاحبه أو ينردد ، أما الكذب فله أكثر من وجه ، والكاذب نفسه لو حاورته أكثر من مرة لوجدت تغييراً وتضارباً في كلامه ؛ لذلك العرب يقولون : إن كنت كذوباً فكُنْ ذكوراً . يعنى : تذكر ما قلته أولاً ، حتى لا تغيره بعد ذلك .

ومن أمثلة الكذب الذى يفضح صاحبه قول أحدهم للآخر : هل تذكر يوم كنا فى مكان كذا ليلة العيد الصغير ، وكان القمر ظهراً !! فقال : كيف ، يكون القمر مثل الظهر فى آخر الشهر ؟

وقد يلجأ القاضي إلى بعض الحيل ، ولا بد أن يستخدم ذكاءه لاستجلاء وجه الحق ، كالقاضى الذى احتكم إليه رجلان يتهم أحدهما الآخر بأنه أخذ ماله أمانة ، ثم أخذها لنفسه ودفنها فى موضع كذا

وكذا ، فلما حاور القاضى المتهم أنكر فانصرف عنه ، وتوجه إلى صاحب الأمانة ، وقال له : اذهب إلى هذا المكان ، وابحث لعلك تكون قد نسيتَه هنا أو هناك .

أو لعل آخر أخذه منك ، فذهب صاحب المال ، وفجأة سأل القاضى المتهم : لماذا تأخر فلان طويلاً هذا الوقت ؟ فردَّ المتهم : لأن المكان بعيدٌ يا سيادة القاضى ، فخائفة ناكرتَه ، ونطق بالحق دون أن يشعر .

ثم يقول تعالى : ﴿يَأْتُونَكَ رَجَالاً .. (٢٧)﴾ [الحج] ورجالاً هنا ليست جمعاً لرجل ، إنما جمع لراجل ، وهو الذى يسير على رجلَيْه ﴿وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ .. (٢٧)﴾ [الحج] الضامِرُ : الفرس لو البعير المهزول من طول السير .

وتقديم الماشين على الراكبين تأكيد للحكم الإلهى ﴿يَأْتُونَكَ .. (٢٧)﴾ [الحج] فالجميع حريص على أدائه الفريضة حتى إن حجَّ ماشياً . وقوله : ﴿يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧)﴾ [الحج] أى : من كل طريق واسع ﴿عَمِيقٍ (٢٧)﴾ [الحج] يعنى : بعيد . ثم يقول الحق سبحانه :

﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَةٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْفَقِيرِ (٢٨)﴾

كلمة ﴿مَنَافِعَ .. (٢٨)﴾ [الحج] كلمة عامة واسعة تشمل كل أنواع النفع : مادية دنيوية ، أو دينية أخروية ، ولا ينبغي أن تُضيق

ما وسَّجِهَ اللهُ ، فكلُّ ما يتصل بالحج من حركات الحياة بُعد من المنافع ، فاستمدادك للحج ، وتدبير نفقاته وأدواته ورأبِطته فيها منافع لك ولغيرك حين توفر لأهلك ما يكفيهم حتى تعود .

ما يتم من حركة بيع وشراء في مناطق الحج ، كلها منافع متبادلة بين الناس ، التاجر الذي يبيع لك ، وصاحب البيت الذي يؤجره لك ، وصاحب السيارة التي تنقلك .

إنن : المنافع المادية في الحج كثيرة ومتشابهة ، متداخلة مع المنافع الدنيوية الأخروية ، فحين تشتري الهدى^(١) مثلاً تؤدي نسكاً وتتفع التاجر الذي باع لك ، والمربي الذي ربى هذا الهدى ، والجزار الذي ذبحه ، والفقير الذي أكل منه .

إن : لا يتم الحج إلا بحركة حياة واسعة ، فيها نفع لك وللناس من حيث لا تدري ، ولك أن تتفكر في الهدايا التي يطلبها للحجاج معهم لأهلبيهم وذويهم ، خاصة المصريين منهم ، فتدري بعضهم يتشغل بجمع هذه الأشياء قبل أن يؤدي نسكه ويقضى معظم وقته في الأسواق ، وكأنه لن يكون حاجاً إلا إذا عاد محملاً بهذه الهدايا .

لذلك كان يأتي إلينا بعض هؤلاء يسألون : أنا على دم متعة^(٢)

(١) للهدى : الذبيحة قُدِّسَ إلى الحرم في الحج [اللاموس للقرين ٢/ ٢٠٦] وهو مستحب للحاج المفرد والمتمتع المفرد . وواجب على التارن والمتمتع . وكذلك على من ترك واجباً من واجبات الحج كرمى الجمار أو طواف الوداع . وكذلك واجب على من ارتكب محظوراً من محظورات الإحرام ، غير الوطء ، كالتلطيط والطلق . [انظر تفصيل هذا وشروط الهدى في كتاب فقه السنة للشيخ سيد سابق ١/ ٥٢٦] .

(٢) التمتع : هو الإجماع في شهر الحج ، ثم يجمع من جابه الذي أمقر فيه ، وسمى تمتعاً لانقطاع باباء التمسكين في أشهر الحج من عام واحد ، من غير أن يرجع إلى بلد . وصفة التمتع أن يحرم من المفقات بالعمرة وحدها ، ويقول عند التلبية : ليك بعمرة ، ويؤدي مناسك العمرة ، ثم يتطلل من إحرامه ويتستحب بكل ما كان محرماً عليه إلى أن يجرء يوم الترمية : فحرم من مكة والحج . وهذا يجب عليه الهدى [فقه السنة ١/ ٤٦٥ ، ٤٦٦] .

وليس معنى نقود ، فماذا أفعل ؟ يريد أن يصوم ، صحيح : كيف سيؤدي ما عليه وقد أنفق كل ما معه ؟ فكنت أقول له : أعطني حقيبة سفر ، وسأبيع ما بها ، ولن أبقى لك إلا ما يكفيك من نفقات حتى تعود .

أليست هذه كلها من المنافع ؟

ومن منافع الحج أن الحاج منذ أن ينرى أداء هذه الفريضة ويعد نفسه لها إعداداً مادياً ، وإعداداً نفسياً معنوياً ، فيحاول أن يعيد حسابات من جديد ، ويصلح من نفسه ما كان فاسداً ، وينتهي عما كان يقع فيه من معصية الله ، ويصلح ما بينه وبين الناس . إذن : يجرى عملية تنقل خاصة تحوله إلى إنسان جديد يليق بهذا الموقف العظيم ، ويكون أهلاً لرؤية بيت الله والطواف به .

ومن الإعداد للحج أن يتعلم الحاج ما له وما عليه ، ويتأدب بأداب الحج فيعرف محظوراته وما يحرم عليه ، وأنه سوف يتنازل عن هئامه وملابسه التي يزهو بها ، ومكانته التي يفتخر بها بين الناس ، وكيف أن الإحرام يسوي بين الجميع .

يتعلم كيف يتأدب مع نفسه ، ومع كل أجناس الكون من حوله^(١) ، مع نفسه فلا يفكر في معصية ، ولا تمتد يده حتى على شعرة من شعره ، أو ظفر من أظفاره ولا يقرب طيباً ، ولا حتى صابونة لها رائحة .

والعجيب أن الحاج ساعة يدخل في الإحرام يحرص كل الحرص

(١) يقصد سيد المصرم بالحج أو العمرة : يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ حَرَّمَ .. ﴾ [المائدة] . ويقول أيضاً : ﴿ أَسِرُّوا كُنُوفَكُمْ لِلْحَبْرِ وَطَمَنُوا تَقَافَا لَكُمْ وَاللَّسَارَةَ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ مِمَّا ذُكِّرَ مَا مَنَعْتُمْ حَرَّمًا .. ﴾ [المائدة] .

على هذه الأحكام ، وأنحدى أى إنسان ينوى الحج ويأخذ فى الإحرام به ، ثم يفكر فى معصية ؛ لأنه يُعدُّ نفسه لمرحلة جديدة يتطهر فيها من الذنوب ، فكيف يكتسب المزيد منها وقد أتى من بلاد بعيدة ليتطهر منها ؟

وفى الحج يتأدب الحاج مع الحيوان ، فلا يصيده ولا يقتله ، ومع النباتات فلا يقطع شجراً . يتأدب حتى مع الجملاد الذى يعتبره أدنى اجناس الكون ، فيحرم على تقبيل الحجر الأسود ، ويجتهد فى الوصول إليه ، فإن لم يستطع أشار إليه بيده .

إن الحج القزام وانضباط يفوق أى انضباط يعرفه أهل الدنيا فى حركة حياتهم ، ففى الحج ترى هذا الإنسان السيد الأعلى لكل المخلوقات كم هو منكسر خاضع مهما كانت منزلته ، وكم هى طمأنينة النفس البشرية حين تُقبل حجراً وهى راضية خاضعة ، بل ويحزن الإنسان إذا لم يتمكن من تقبيل الحجر .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَذَكِّرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ ۖ ﴾ (٢٨)

[الحج]

يذكروا اسم الله : لأن كل أعمال الحج مصحوبة بذكر الله وتلبية ، فَمَا مِنْ عَمَلٍ يُؤَدِّيهِ الْحَاجُّ إِلَّا وَيَقُولُ : لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ . ونظال التلبية شاغله وديئنه إلى أن يرمى جمرة العقبة ، ومعنى « لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ » أن مشاغل الدنيا تطلبنى ، وأنت تطلبنى لأداء فَرَضِكَ على ، فأنا أَلْبَيْكَ أنت أولاً ؛ لأنك خالقى وخالق كل ما يشغلنى ويأخذنى منك .

سورة البقرة

﴿١٧٨﴾

والأيام المعلومات هي : أيام التشريق ^(١) .

ومعنى : ﴿وَعَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ .. (٧٨)﴾ [الحج] أى :
يشكرون الله على هذا الرزق الوقتى الذى يأكلون منه ويشربون ،
ويبيعون ويشتررون فى أوقات الحج ، أو يشكرون الله على أن خلق
لهم هذه الأنعام ، وإن لم يحجوا ، ففى خلق الأنعام - وهى الإبل
والبقرة والغنم والماعز - وتسخيرها للإنسان حكمة بالغة ، فضلاً عن
الانتفاع بلحمها وألبانها وأصوافها وأوبارها اذكروا الله واشكروه أن
سخّرهما لكم ، فلو لا تسخير الله لها لما استطعتم أن تبتغوا بها ،
فالجمل مثلاً هذا الحيوان الضخم يقوده الطفل الصغير ، ويُنِيخه
ويحمّله فى حين لم يستطع الإنسان تسخير الثعبان مثلاً أو الذئب .
لذلك يقول تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا
فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧٦) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ .. (٧٧)﴾ [يس]

لذلك نذكر الله ونشكره على ما رزقنا من بهيمة الأنعام استمتاعاً
بها أكلاً ، أو استمتاعاً بها بيعاً أو زينة ، كما قال تعالى : ﴿وَلَكُمْ
فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦)﴾ [النحل]

(١) ذكر ابن كثير فى تفسيره (٣/٣١٧) أربعة أقوال فى تأويل الأيام المعلومات :
- أيام العشر الأول من شهر ذى الحجة . قاله ابن عباس وأبو موسى الأشعري ومجاهد
وغيرهم وهو مذهب الشافعي والمشهور عن أحمد بن حنبل .
- يوم النحر وثلاثة أيام بعده . وهو أيام ١٠ ، ١١ ، ١٢ من شهر ذى الحجة وهى
المسماة بأيام التشريق . قاله ابن عباس وابن عمر وإليه ذهب أحمد بن حنبل فى رواية
عنه .
- يوم النحر ويومان بعده . قاله ابن عمر والسدي وهو مذهب مالك .
- يوم عرفة ويوم النحر وأيام التشريق . قاله زيد بن أسلم أى أيام ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢
من شهر ذى الحجة .

ولولا أن الله تعالى ذللها لخدمتك ما استطعت أنت تذليلها
والانتفاع بها ؛ لذلك من حكمة الله أن يترك بعض خلقه غير
مُسْتَأْنَس ، ولا يمكن لك بحال أن تستأنسه أو تُذَلِّله لنقل على ذكر
لهذه النعمة ، وتشكر الله عليها .

وسبق أن ضربنا مثلاً بالبرغوث ، وهو من أدنى هذه المخلوقات ،
ولا تكاد تراه ، ومع ذلك لا تقدر عليه ، وربما أفضى مضجعتك ، وأقلق
نومك طوال الليل . وتلمس هذه النعمة في الجمل الذي يقوده الصبي
الصغير ، إذا حرن^(١) منك فلا تستطيع أن تجعله يسير رُحماً عنه ، أو
صَاحِباً فلا يقدر عليه أحد ، وقد يقتل صاحبه ويبطش بمن حوله .

إذن : لا قدرة لك عليه بذاتك ، إنما بتذليل الله يمكن الانتفاع به ،
فتسوقه إلى نُحره ، فيقف ساكناً مُسْتَسْلماً لك .

والمأمل في حال الحيوانات التي أحلها الله لنا يجد أمرها عجيباً ،
فالحيران الذي أحله الله لك تظل تنتفع به طوال عمره ، فإذا ما تعرض
لما يزهق روحه ، ماذا يفعل ؟ يرفع رأسه إلى أعلى ، ويعطيك مكان
ذُبْحِه . وكأنه يقول لك : أنا في اللحظات الأخيرة فاجتهد في أن تنتفع
بلحمي . وأهل الريف إذا شاهدوا مثل هذه الحالة يقولون : طلب
الحلال يعني الذبح . أما الحيوان الذي لا يُذبح ولا يُحله الله فيموت
مُنْكَس الرأس ؛ لأنه لا فائدة منه .

هذا الحيوان الذي نتهمه بالفناء ونقول أنه بهيم .. الخ لو فكرت

(١) حرنت الذاقة : قامت فلم تبرز . [أى : رفضت السير] . لا تنفاد : إذا استُخِر [طلب
منها] جريها وقتت . [لسان العرب - مادة : حرن] .

فيه لتغيير رأيك ، فالحمار الذي نتخذه رمزاً للغباء وعدم الفهم تسوق أمامك وتحمله القاذورات وتضربه فلا يعترض عليك ولا يخالفك ، فإن نظفت وزينته بلجام فضة ، وبردة قطيفة تتخذه ركوبة وزينة ويسير بك ويحملك ، وأنت على ظهره ، فإن غضبت عليه واستخدمته في الاحمال وفي القاذورات تحمل راضياً مطيعاً..

وانظر إلى هذا الحمار الذي نتخذه مثلاً للغباء ، إذا أردت منه ان يتفكر فتاة أوسع من قدرته وإمكاناته ، فإنه يتراجع ، ومهما خبرته وقسوت عليه لا يقدم عليها أبداً ؛ لأنه يعلم مدى قفزته ، ويعلم قدرته ، ولا يقدم على شيء فوق ما يطيق - وبعد ذلك نقول عنه : حمار !!

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْبَاسِ الْفَقِيرِ ﴾ (٧٨)

الباس : هو الذي يبدو على سحنته وشكله وزيه أنه فقير محتاج ، أما الفقير فهو محتاج الباطن ، وإن كان ظاهره اليسر والغنى ، وهؤلاء الفقراء لا يلتفت الناس إليهم ، وربما لا يعلمون حالهم وحاجتهم ، وقد قال الله فيهم : ﴿ يَخْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءُ مِنَ التَّعَلُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ۚ ﴾ (٧٧) [البقرة]

والمعنى : كلوا مما يُباح لكم الأكل منه ، وهي الصدقة المحضه ، أو الهدية للبيت غير المشروطة بشيء ، يعنى : لا هي دم قرآن أو

(١) قال أبو بكر الجصاص (ت ٣٧٠ هـ) في كتابه « أحكام القرآن » : « دار الكتب العلمية (٣٠٧/٣) : « ظاهره يقتضى إيجاب الأكل ، إلا أن السلف مستحقون على أن الأكل منها ليس على الوجوب ، وقد روى عن عطاء والحسن وإبراهيم ومجاهد قالوا : « إن شاء أكل ، وإن شاء لم يأكل » .